الفصل الثاني

{الإستشراق الفرنسي – الأصول التاريخية والدوافع}

المبحث الأول : {أصول الإستشراق الفرنسي التاريخية}

المبحث الثاني : {دوافع الإستشراق الفرنسي – نماذج من المستشرقين والمؤسسات الإستشراقية الفرنسية}

المبحث الأول

أصول الإستشراق الفرنسي التاريخية

ولد الإحتكاك العربي الإسلامي بفرنسا في أواخر القرن الثامن الميلادي عندما بدأ نشاط العرب العسكري يتوغل في أوروبا إنطلاقاً من الأندلس[١] وكان من أبرزها معركة بلاط الشهداء وما لحقها من صدامات عسكرية، لتبدأ بدلاً من الصدام صلات دبلوماسية بين هارون الرشيد وشارلمان[٢] التي تكشف الهدايا المتبادلة بينهما على الطبيعة الحضارية لكلا الطرفين.

إلا أن المصادر لم تذكر شيئاً عن توجه استشراقي فرنسي إلا في القرن العاشر الميلادي مع جربرت دي أورلياك• الذي أصبح في ما بعد بابا لكنيسة روما سنة (٩٩٩م) باسم سلفستر الثاني (٩٣٠-١٠٠٣م) وكان أول فرنسي يعتلي كرسي البابوية. ويقول بدوي عنه أنه "البابا الوحيد الذي تعلم العربية وأتقن العلوم لدى العرب وعلى أيديهم في الأندلس، فدرس الهندسة والفلك، وأدخل الأرقام العربية والساعة ذات الميزان إلى فرنسا"[٣] وهو من الأسماء البارزة التي وفدت إلى الأندلس طلباً للعلم، حيث شهدت تلك المرحلة الممتدة من نشأة الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (٧١١م) حتى سقوطها (١٤٩٢م) توافد العديد من طلاب العلم الأوروبيين ومنهم الفرنسيون[٤] لينهلوا من معين المدارس الأندلسية، في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة. وتمثل أول تعاطي إستشراقي للفرنسيين مع الإسلام في أول ترجمة للقرآن الكريم إضطلع بها بطرس المحترم أو الناسك (Pierre le Venerable) عام (١١٤٣م)[٥]. وبطرس هو راهب لاهوتي فرنسي (١٠٩٢-١١٥٦م) زار أسبانيا حين

---

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٥٧.

(٢) حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة [مطبعة الجامعة السورية، سوريا، ١٩٥٨] ص٣٦١.

• ولد سنة (٩٣٠م) في أورلياك Oraliac في إقليم الأوفرون، نشأ في دير سان جيرو Saint Gerault من الرهبانية البندكتية (المؤسسة عام ٥٢٩م). قصد الأندلس وتعلم في مدارس ريبول وأشبيليهونقرطبة. أهم مؤلفاته (رسائله - الخطب - مؤلفات جربير في الرياضيات) لمزيد من الإطلاع انظر: العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٢٠.

(٣) بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين [ط٣، دار العلم للملايين، تموز ١٩٩٣] ص١٧٩.

(٤) حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٥١٨.

(٥) بدوي، موسوعة المستشرقون، ص١١٠.

كان رئيساً لدير كلوني• للإطلاع على أحوال رعيته، والإستزادة من العلوم العربية في الأندلس فاطلع خلال زيارته على المجادلات القائمة بين المسلمين والمسيحيين، فتولدت لديه قناعة بأن الرد على ما كان يردده (هرطقة محمد)[1] لا يكون إلا بقوة الكلمة والحجة المنطقية، وتعلم اللغة العربية، وهذا يحتاج برأيه إلى المعرفة العميقة بالدين الإسلامي، لذا قرر أن يعمل على ترجمة القرآن، مستعيناً بمدرسة المترجمين في طليطلة، حيث وافق كل من الراهبين الإنكليزي روبرت كينيت (Robert Kennet) والألماني هيرمان الدالماتي (Hermann De Dalmatie) على العمل مقابل مبلغ مغر من المال.

كما جرى عمل على ترجمة نصوص من كتاب "مسائل عبدالله بن سلام"، أحدها يتضمن حواراً بين الرسول (ﷺ) وبعض أحبار اليهود والتي أدت إلى إسلام ابن سلام وآخر عن حياة الرسول عليه السلام (مولده وطفولته) والثالث موجز لتاريخ الإسلام حتى الحسين بن علي عليه السلام.

وعمل على ترجمة مخطوط (في علم الكلام) من العربية إلى اللاتينية حيث كلف بذلك بطرس التولوني (Peter of Toulon) وساعده في ذلك أمين سره الخاص بطرس البكتافينسي (Pierre De Poitiers) [2].

والجدير ذكره أن هذه الترجمة للقرآن الكريم جاءت مليئة بأخطاء وتحريفات ونواقص لأن المترجم لم يلتزم بالترجمة الحرفية لكلام الله تعالى•. ونقلت هذه الترجمة إلى الإيطالية (١٥٤٧م) ومنها إلى الألمانية (١٦١٦م) ومن الألمانية إلى

• من أشهر الأديرة الرهبانية في التاريخ الأوروبي الوسيط: تأسسسنة (٩١٠م) في منطقة اللوار في فرنسا من قبل الرهبانية البندكتية، لعب دوراً كبيراً في التحريض للحروب الصليبية. وصل عدد من رهبانه إلى سدة البابوية في روما. ترأسه بطرس المحترم في آب (١١٢٢م)، وأصلحه إصلاحاً واسعاً وضمن له ولفروعه في فرنسا وأسبانيا وغيرهما، موارد مالية واسعة نتيجة اتصالاته السياسية بأمراء أسبانيا وفرنسا. انظر: رودنسون، تراث الإسلام، في هامش مقالته بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الغربية الإسلامية، ص٣٧، كذلك انظر: بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١٠.

(١) فوك، يوهان، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٣-١٤-١٥. أنظر كذلك رودنسون. تراث الإسلام، العدد٨، ص٣٧.

(٢) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٦.

• لصعوبة إدراكه المضمون الروحاني السامي، اضطر إلى إعطاء معنى أو فحوى عام لكل آية من الآيات دون التقيد بعلم القراءات أو التفسير. واعتمد "ترجمة مضمون فكرة كل آية من كل سورة، مما جعله أحياناً يعطي عكس المعنى المراد في الآية. فمثلاً ترجمة سورة الهمزة (ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالاً وعدده، يحسب أن ماله أخلده) حيث ورد.. الذي سيخلده ماله فحذف (يحسب). الأمر الذي أعطى المعنى المعاكس للمعنى المراد في الآية الكريمة".
أنظر: فوك، ويوهان، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٧.

الهولندية (١٦٤١م)، ما يدل على أنها بقيت الترجمة المعتمدة في أوروبا، رغم علاتها[١] لفترة طويلة.

وجاءت الحروب الصليبية لتشكل، بحكم المدة الزمنية الطويلة التي استغرقتها (١٠٩٦-١٢٥٤م) وما تخللها من معارك واتفاقات وحرب وسلم، حالة تفاعل عنيفة بين العرب المسلمين، وبين المجموعات البشرية التي وفدت من أوروبا وأوجدت "حاجة كبيرة وملحة للحصول على صورة كاملة ومسلية ومرضية لإيديولوجية الخصوم"[٢] المسلمين.

كما كانت إحدى نقاط التماس الحيوية بين الشرق والغرب، بين أوروبا والعرب، وخصوصاً فرنسا التي آلت على نفسها في مرحلة من المراحل الدفاع عن الكاثوليكية، وأن تكون حاميتها المتقدمة في أوروبا ومنها بدأت فكرة الحروب الصليبية من خلال خطبة البابا أوربان الثاني (Urban II) الشهيرة في دير كلوني (Cluny) في كلير مونت (Clermonte) الفرنسية[٣].

وتعددت وتشعبت دوافع الحروب الصليبية، مع تعدد الفئات والشرائح التي شاركت فيها، حيث التقى الدافع الديني (الظاهري) مع الدوافع الأخرى الخفية (السياسي الإقتصادي الثقافي) وحتى الدافع الشخصي (المغامرات)[٤]، فأوجدت هذا المنعطف التاريخي في علاقة الشرق بالغرب والإسلام بالمسيحية والعرب بأوروبا، وتركت آثارها العميقة على المستويات كافة حتى يومنا هذا.

إحتاجت الروح التعصبية التي ولدتها تلك الحروب، أوروبا بكاملها، حيث حققت وحدة بدت متراصة بوجه العالم الإسلامي، حيث "كانت أوروبا كلها تتحرك لتقاتل جنباً إلى جنب مع الإسبان لاستعادة الأراضي المحتلة (Reconquista)• وكان لا بد للوحدة المسيحية التي أشاد بها الباباوات من أن تدعم عن طريق المشاريع الضخمة التي كانت تقام بانتظام تحت الإشراف البابوي؛ فأي واجب مشترك يمكن أن يكون أكثر تحفيزاً من استرداد الأراضي، إذا كان ممكناً نشره في أنحاء عالم البحر المتوسط كافة"[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨. أنظر كذلك: بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١١١.

(٢) رودنسون، تراث الإسلام، ص٣٤.

(٣) زهير الدين، صالح، الإسلام والإستشراق [مطبعة الندوة الجديد، بيروت، ١٩٩١] ص٩.

(٤) يوسف، جوزيف نسيم، في تاريخ الحركة الصليبية [دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩] ص١٩.

• مصطلح أسباني ظهر في التاريخ الأسباني إبان الحروب التي انتهت بسقوط الأندلس وكان يقصد به (استرداد الأراضي المحتلة).

(٥) رودنسون تراث الإسلام، العدد ٨، ص٣٠.

كانت فكرة الحروب الصليبية التي اندلعت في "الغرب والشرق" •• بشكل متزامن والتي حققت أوروبا عامة ومنها فرنسا على وجه الخصوص فوائد كثيرة في هذا النزاع، حيث أن النهضة في مجالات العلوم والفنون والآداب التي شهدتها فرنسا تعود في بعض مراحلها إلى هذا الاتصال العنيف والطويل بين الشرق والغرب، فقد اقتبس الفرنج (يسمون في أوروبا بالصليبيين) من عادات العرب وتقاليدهم في المأكل والملبس وبناء البيوت. يقول العقيقي: "وكان هيلاري••• اقتبس بعض الترانيم التي نقلها إلى اللاتينية... وأخذ الرهبان في الحملات الصليبية عن النصارى الشرقيين عبادة العذراء وصلاة السبحة"(١).

كما صنّفوا كتباً عن الشرق وأهله، ضمّنوها مشاهداتهم وملاحظاتهم. ووضع بعضهم كتباً وبحوثاً عن الحملات الصليبية، إذ ألّف وليم الصوري الفرنسي (١١٣٠-١١٩٠م) مثلاً في الحملات الصليبية الأولى تاريخاً بعنوان (حوادث ما وراء البحار) سنة (١١٨٤م)، ما زال مرجعاً يعود إليه الباحثون حتى هذه المرحلة، وقد خصص جزء منه عن الحضارة الإسلامية، ينكرها بالكثير من الإعجاب، وكتب السير دو جوان فيل (De Join Ville) سيرة ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX) في حملته الصليبية سنة (١٣٠٩م)، "وأطنب في ذكر صلاح الدين"(٢)، وذلك بحكم علاقته بملك فرنسا ومشاركته له في الحملة على مصر.

إلا أن اشتداد العدواة الغربية للعرب والإسلام، خاصة بعد انهيار الإمارات الصليبية الواحدة بعد الأخرى حتى تحرير بيت المقدس، كان من أبرز نتائج الحروب الصليبية، حيث لم يقتصر شرهم على الفظائع المروعة التي اقترفها "الفرسان الصليبيون الأتقياء"• والتخريب والإنحطاط الذي خلفوه، لكنه كان قبل كل شيء شراً ثقافياً ما زالت ذيوله حاضرة حتى عصرنا الحاضر(٣).

هذا العداء الغبي عامة، والفرنسي خاصة، والذي عجز عن تحقيق ما يصبو إليه من مآرب للذيل من الإسلام بقوة السلاح، كان لا بد له من البحث عن وسائل جديدة قادرة، من وجهة النظر الأوروبية، على تحطيم أهم أسباب المنعة والقوة لدى

•• ويقصد بها الحروب التي جرت في شبه الجزيرة الأيبرية والتي أنتهت بسقوط الدولة العربية الإسلامية سنة (١٤٩٢م) والحروب الصليبية التي استهدفت الشرق العربي الإسلامي.

••• هيلاري: أسقف بواتييه (ت ١٣٦٧م). كان قد نفي إلى لبنان مدة طويلة. انظر: العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٨.

(١) المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٢) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٩.

• يوسف، جوزيف نسيم، في تاريخ الحروب الصليبية، ص٨٢. يتحدث في فصل تحت عنوان (بربرية الفرنج وتحضر العرب) عما ارتكبه الصليبيون من فظائع وجرائم بحق الإنسانية والأديان حيث لم يراع حرمة الأماكن المقدسة أو غيرها.

(٣) أسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٥٦-٥٨.

العرب المسلمين والتي تجسدت في تلك الفترة بالإعتصام بالإسلام وكتابه ونبيه العربي.

وعليه استلزمت المعرفة المتعمقة بالعرب والإسلام وحضارتهم ودينهم وتاريخهم ولغتهم، فتعالت الدعوات•• التي توجت بقرار مجمع فيينا الكنسي (١٣١١-١٣١٢م)[١] القاضي بتأسيس كراسي تدريس اللغة العربية في بعض الجامعات الأوروبية ومنها جامعة باريس.

كان لسقوط القسطنطينية (١٤٥٣م) إنعكاس كبير على الغربيين عموماً والفرنسيين خاصة، الأمر الذي حملهم على الشعور بتفوق العثمانيين[٢].

فهذه الأمبراطورية التي أسست في القرن الرابع عشر الميلادي أدركت السبل الكفيلة باستثمار تاريخ المنطقة وحضارتها فأفلحت في أقل من قرن ونصف في الإستيلاء على مساحة واسعة من آسيا وأوروبا وأفريقيا، وكوّنت القوة الأولى في حوض البحر المتوسط. وهذا ما دفع الدبلوماسية الفرنسية في زمن فرانسوا الأول• إلى محاولة كسب ود الباب العالي في زمن سليمان القانوني••، لمواجهة الخطر المتمثل بالنمسا[٣]. وعلى ضوء المعاهدة التي وقعت بين فرانسوا وسليمان، تم تشجيع جهود التعرف على الإمبراطورية العثمانية، الذي توج باستحداث كرسي الدراسات العربية في الكوليج دو فرانس College de France سنة (١٥٣٩م)[٤] كما أنشأ الملك كرسيين للعبرية اليونانية. هذه الكلية أصبحت في ما بعد كلية فرنسا الأولى، دُرّست فيها اللغات الشرقية، وكانت نقطة إنطلاق للإستشراق الفرنسي بأوسع أشكاله المنظمة[٥].

•• أشهر من دعا لذلك أحد طلائع المستشرقين الأوروبيين (رايموندو لوليو (١٢٣٥-١٣١٤م) R. Lutio انظر: العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٤.

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٣٤.

(٢) فريمو، جاك، فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ترجمة هاشم صالح [ط١، الأرض، قبرص، ١٩٩١] ص١٨.

• فرانسو الأول: هو فرنسيس الأول (١٤٩٤-١٥٤٧م) حكم من سنة (١٥١٥-١٥٤٧م) تحالف مع سليمان الأول، وقد رعى الفنون والآداب. لمزيد من التفاصيل، انظر: الموسوعة العربية الميسرة، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٢٩٤.

•• سليمان الأول (١٤٩٤-١٥٦٦م). بلغت الإمبراطورية العثمانية أوج سطوتها في عهده، واصل فتوحات أبيه في البلقان. تحالف مع فرانسوا الأول سنة (١٥٣٦م) وبقى هذا التحالف أساس السياسة التركية الخارجية مدة ثلاثة قرون. لمزيد من الإطلاع انظر: الموسوعة العربية الميسرة، ص١٠٠١.

(٣) فريمو، فرنسا وافلام، من نابليون إلى ميتران، ص١٨.

(٤) ناجي، عبدالجبار، تطورالإستشراق في دراسة التراث العربي، ص٢٩.

(٥) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٢.

من جانب آخر، أثمرت سياسة توثيق العلاقة بين فرنسا والعثمانيين عن فتح سفارة فرنسية في القسطنطينية[١]، وإقامة العديد من القنصليات في مدن الإمبراطورية، الأمر الذي أظهر حاجة الفرنسيين لتعلم اللغة التركية العربية وأدى إلى إنشاء مدرسة شباب اللغة في القسطنطينية في دير الكبوشيين. وأخذ الشباب الفرنسي يتلقون الثقافة العربية في هذا الدير بعد تلقي تعليم أولي في كلية لويس الكبير في باريس قبل أن يبعث بهم إلى القسطنطينية. هذه المدرسة عملت على ظهور أوائل المستشرقين الفرنسيين[٢].

كما كان لتأسيس المكتبة الوطنية الفرنسية[٣].Librairie Nationale Francaise (١٦٥٤م) أهمية تذكر في هذا المجال، حيث ازداد السعي لاقتناء نفائس المخطوطات الشرقية عبر الممثلين الديبلوماسيين ونقلهم بشكل مشروع أو غير مشروع عشرات المخطوطات العربية المهمة التي ما زالت تشكل حتى اليوم مجموعة من أندس وأغنى مجاميع المخطوطات الشرقية، لا سيما بعد أن أصبحت المكتبة الوطنية الوحيدة في فرنسا.

وحظيت الدراسات العربية في فرنسا منذ القرن السادس عشر بأهمية ملحوظة، ودور كبير في تنشيط حركة الإستشراق الفرنسي، حيث أسهمت في إنضاج معرفة الفرنسيين ببلدان وسكان الشرق من عادات ولغات وآداب[٤]، فبلغت أوجها عندما أقدم المستشرق الذائع الصيت سلفتر دو ساسي (Silvester De sacy) على مناشدة حكومة الثورة الفرنسية (Conventions) على تأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، حيث وافقت الحكومة عليها سنة (١٧٩٥م)[٥].

يتفق الباحثون والمؤرخون على أن الثورة الفرنسية• لم تكن مجرد حدث عارض في التاريخ الفرنسي والأوروبي، بل حلقة رئيسية ضمن سلسلة من الأحداث التي اتسع نطاقها لتشمل أوروبا.

---

(١) منتران، روبير، (الإستشراق الفرنسي أصوله، تطوره، آفاقه) ترجمة يوسف حبي المنشور في مجلة الإستشراق العدد الثاني، شباط ١٩٨٧، ص٣٣.

(٢) منتران، روبير، (الإستشراق الفرنسي أصوله، تطوره، آفاقه) ترجمة يوسف حبي المنشور في مجلة الإستشراق العدد الثاني، شباط ١٩٨٧، ص٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٩.

(٤) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٧٧-٧٨.

(٥) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٧٤.

• ثورة شعبية، نشبت في فرنسا آبان حكم الملك لويس السادس عشر، توالت أحداثها بين عامي (١٧٨٩-١٧٩٩م)، تمخضت عن آثار سياسية وإجتماعية هامة في الغاء النظام الإقطاعي، والملكية الإستبدادية، وإعلان حقوق الإنسان. بدأت باجتماع ممثلي الشعب بتهديد من الجماهير المتظاهرة. تحول المجلس إلى جمعية، بلغت الأحداث ذروتها في ١٤ تموز بالإستيلاء على

ويعود هذا التأثير إلى مكانة فرنسا وثقلها السكاني من جهة حيث كانت تشكل نصف تعداد سكان أوروبا حينها، ومن جهة أخرى إلى مكانتها السياسية والعلمية خاصة، حيث كانت باريس عاصمة[١] الثقافة والفنون والآداب والعلوم. كما كان لإعلان المبادئ التي شرعتها الثورة الفرنسية وأكدت على الحرية والإخاء والمساواة، سحر لا يقاوم أسهم في تلك المتغيرات التي عصفت بأوروبا في ما بعد.

وتعد الثورة الفرنسية إحدى نتائج عصر التجديد والتنوير الذي نتج في أحد جوانبه عن الاحتكاك الحيوي بالثقافة العربية الإسلامية، حيث بزغ في أوروبا وفرنسا بالذات، ومع اقتراب الحضارة العربية الإسلامية، نور عقلي متعطش للرقي والتقدم[٢]، فانتشرت الثقافة الكلاسيكية بفضل المدارس وأفكار الفلاسفة والقراءة والصالونات الأدبية وجمعيات الفكر[٣].

وبسبب النتائج السيئة التي خلفتها كنيسة العصور الوسطى - وعجز حركات الإصلاح الديني عن تحقيق النجاح الروحي الحقيقي - ضعفت السلطة الروحية للتفكير الديني المسيحي "إلى أن أزيلت سيطرة الكنيسة تماماً بفعل الثورة الفرنسية في فرنسا نفسها، ثم بآثار تلك الثورة في البلاد الأوروبية الأخرى"[٤].

إنعكست هذه التطورات بوضوح على العقلية الأوروبية عموماً والفرنسية خصوصاً، وذلك بتوجيه رؤيتها وموقفها من الشرق ونتاجاته وأسلوب التعامل معه، والتي برزت في كتابات العديد من المستشرقين الفرنسيين خلال وبعد الثورة.

وكان لطبيعة التطورات التي وقعت بعد الثورة الفرنسية، وما يتعلق منها بالحروب التي خاضتها فرنسا مع الممالك الأوروبية المناهضة لها، وما أحدثته هذه الحروب من نزيف في الطاقات والثروات الفرنسية، وخسارة بعض المستعمرات، علاقة في دفع العقلية الإستعمارية إلى واجهة القرار، لتنظر إلى الشرق تعويضاً لما في مواجهة الحلف الأوروبي المضاد للثورة، وسعياً وراء الإنتقام من الإنكليز الذين

سجن الباستيل وهدمه (أصبح في ما بعد هذا اليوم عيداً وطنياً فرنسياً) وقد مهدت جملة عوامل لقيام الثورة التي امتدت آثارها الفكرية والسياسية إلى شتى أنحاء العالم، من إنتشار المبادئ المتحررة التي بثها عدد من المفكرين أمثال – فولتير – مونتسكيو – روسو- وعلى يد المجلس الوطني تقرر إلغاء الملكية وإعدام الملك والملكة، وكثير من طبقة النبلاء وإعلان الجمهورية الفرنسية الأولى. وجعلت شعارها الحرية- الإخاء- المساواة. وانتهت هذه المرحلة من الثورة عام (١٧٩٩م) باستيلاء نابليون على الحكم. انظر: عطية الله، أحمد، الثورة الفرنسية، دائرة المعارف الحديثة، [ط٢، مكتبة الإنجلو مصرية] ج٢، ص٥٧٨.

(١) كارليل وهيبرت، الثورة الفرنسية [دار المستقبل، الإسكندرية] ص٥.

(٢) اسد، محمد، الإسلام على مفترق الطرق، ص٤٣.

(٣) سوبول، البير، تاريخ الثورة الفرنسية ترجمة جورج كوسي [ط٢، بيروت] ص١٤.

(٤) اسد، محمد، الإسلام علىمفترق الطرق، ص٤٤.

حرموا فرنسا من بعض مستعمراتها[1]، الأمر الذي حث الفرنسيين على تشجيع الدراسات الإستشراقية، وخلق أجيال جديدة من المستشرقين المتعمقين بلغات وأحوال البلاد العربية والإسلامية. وكانت مدرسة اللغات الحية (١٧٩٥م) التي سبق ذكرها تعمل على تهيئة الشباب الملم بلغات الأمم والشعوب المستهدفة (العربية – العبرية – السريانية ـ التركية)، كما ظهر العديد من كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الفرنسية كافة أمثال السوربون وليون وفانس وبواتيه.

الحملة الفرنسية على مصر

كانت الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م) بقيادة نابليون بونابرت• خير معبر عما تقدم، إلى الحد الذي دفع ببعض الباحثين إلى اعتبارها البداية الحقيقية للإستشراق الفرنسي، لما انطوت عليه من أهداف سياسية واقتصادية وعلمية وثقافية حيث تؤكد المصادر المختلفة أن أبرز ما تميزت به هو اصطحابها لجيش من المستشرقين العلماء في ميادين العلم المختلفة[2].

وما عزز الحماس الفرنسي لغزو مصر صورة الوضع في الشرق عموماً ومصر خصوصاً، والذي رسمته تقارير السفراء والدبلوماسيين والقناصل الفرنسيين في القسطنطينية ومصر، وكتابات الشعراء والأدباء الفرنسيين الذين قاموا برحلات إلى الشرق. وحيث كان لنشر مذكرات البارون دي فوت (Defot) (١٧٨٤م) حول زيارته إلى الشرق تأثير كبير في توضيح صورة مصر، والتي ذكر فيها أن الواجب يقتضي من فرنسا السيطرة على مصر، إن هي أرادت الإستئثار بتجارة البحر المتوسط مع الشرق، لا بل بإحكامها السيطرة على تجارة الهند كذلك، كما تعتبر

---

(١) شكري، محمد فؤاد، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر [دار الفكر العربي] ص٢٢.

• ولد عام (١٧٦٩-١٨٢١م) في أجاكسيو في كورسيكا، دخل الجيش عام (١٧٨٥م) وتخصص ضابط مدفعية، ذاعت شهرته من خلال الإنتصارات التي حققها في النمسا وفي شمال إيطاليا. قاد الحملة الفرنسية على مصر. وعاد منها عام (١٧٩٩م) للإطاحة بالحكومة وأصبح حاكماً مطلقاً على فرنسا حتى عام (١٨١٤م). غزا روسيا. تخلى عن السلطة في (١٨١٤/٢/١١م) ومنح حكم إمارة البا واحتفظ بلقب إمبراطور. هرب من البا في شباط (١٨١٥م) وحكم باريس بصفته إمبراطور لمدة مئة يوم والتي انتهت في معركة واترلو في حزيران (١٨١٥م) حيث أسر ونقل إلى سانت هيلينا حيث قضى نحبه عام (١٨٢١م). لمزيد من الإطلاع أنظر: بالمر، الآن، موسوعة التاريخ الحديث ترجمة سوسن فيصل السكر ويوسف محمد أمين [بغداد، ١٩٩٢] ج٢، ص١٢٨.

(٢) الجبري، عبدالمتعال محمد، الإستشراق وجه للإستعمار الفكري [مكتبة وهبي القاهرة، ١٩٩٥] ص١٨٢. انظر كذلك: اركون، محمد وآخرون، الإستشراق بين دعاته ومعارضيه ترجمة هاشم صالح [ط١، دار الساقي، بيروت ١٩٩٤] ص٣٣٠.

مصر "مستعمرة مثالية" لخصوبة أرضها وصلاح مناخها لإقامة المستعمرين الفرنسيين[١].

ويردفه سافاري (Savary)، المستشرق المعروف برسائله المشهورة عام (١٧٨٦م) عن مصر، والتي تضمنت وصفاً شاملاً لمصر شعباً وأرضاً. وبعد عام ظهرت كتابات فولني (Volney) حول رحلته إلى سوريا ومصر[٢]، والتي تضمنت دراسة لجغرافية هذه البلاد وشؤونها السياسية والاقتصادية التي تعج بالفوضى والإضطراب.

كل ذلك شكل مقدمات للحملة البحرية العسكرية التي انطلقت في ١٩ أيار (١٧٩٨م)، من مرفأ طولون، لتنزل في الإسكندرية في الأول من تموز[٣].

لقد تجاوز تعداد البعثة العلمية في هذه الحملة المائة وخمسة وسبعين عضواً[٤] من شتى الإختصاصات في ميادين العلم والمعرفة الإنسانية، من علماء الرياضيات والفلك والهندسة المدنية إلى علماء الطبيعيات، والإقتصاد والفنون الجميلة والآثار إلى عمال المطابع المهرة والمترجمين.

وأنشأ بونابرت "المجمع العلمي المصري" في ٢٢ آب (١٧٩٨م)، وجعل مونج• (Monje) كبير علماء الرياضيات رئيساً عليه، وجعل من نفسه نائباً للرئيس[٥]، كما أسس مطبعة[٦] عربية لطبع بياناته إلى الشعب المصري، وكذلك إنتاج العلماء الباحثين من دراساتهم لطبيعة البلاد وأهلها وتاريخها ونظمها وآثارها. وكان من نتاجهم الرئيسي كتاب بعنوان "وصف مصر" وقد طبع في ثلاثة وعشرين مجلداً، يبلغ حجم الصفحة الواحدة متراً مربعاً، وتعرض لتاريخ مصر منذ القدم حتى الحملة الفرنسية، وإلى وصف تاريخ مصر الطبيعي ودراسة ثرواتها ومحاصيلها النباتية والحيوانية وتقاليد سكانها[٧].

وكما نرى فإن هذا الكتاب يشتمل على معلومات مفصلة وفيرة تصب في خانة السياسة الإستعمارية الفرنسية تجاه مصر؟ وإلا ما هي الجدوى من حشد الجيوش

---

(١) شكري، محمد فؤاد، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، ص٤٥.

(٢) فريمو، جاك، فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ص٣٥.

(٣) شكري، محمد فؤاد، الحملة الفرنسية، ص٨٦.

(٤) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١، ص٩٦.

• بلور مشروع مدرسة التقنيات العليا (بوليتكنيك).

(٥) الحاج، الظاهرة الإستشارقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١، ص٩٧.

(٦) فريمو، فرنسا والإسلام من نابليون إلى ميتران، ص٤٤.

(٧) شكري، الحملة الفرنسية على مصر، ص٧.

والأساطيل لغزو مصر - فهذا عمل يذكرنا بالحملات الصليبية الفرنسية للإستيلاء على مصر لكونها تمثل بعداً إستراتيجياً مع الممالك الصليبية في بلاد الشام حينذاك.

ويعد هذا الكتاب أحد أهم إنجازات الحملة الفرنسية على مصر في مجال الدراسات الإستشراقية، فضلاً عن حل رموز الكتابة الهيروغليفية عن حجر رشيد، من قبل عالم الآثار الفرنسي شامبليون (Champillion) [١].

وفي الوقت نفسه كانت الحملة مجالاً حيوياً ومهماً للإتصال المباشر والمنظم مع الشرق، والكشف عن طريق المعاينة والمشاهدة عن أحواله السياسية والإقتصادية والاجتماعية والتي انطوت دراساتها على قدر كبير من المعلومات. ولعل من أهم نتائج الحملة ظهور العديد من العلماء والباحثين الذين تخصصوا في الدراسات الإستشراقية، وكان من نتائج أعمالهم ما يمكن أن نطلق عليه "مرحلة الإستشراق العلمية"[٢].

وفي عام (١٧٩٩م) ظهر مصطلح الإستشراق[٣] Orientalisme في مفردات الفكر الفرنسي المتوجه لدراسة الحضارة العربية الإسلامية.

ومن المحطات المهمة في مسيرة الإستشراق الفرنسي عام (١٨٢٣م) تاريخ تأسيس الجمعية الآسيوية، التي أصدرت المجلة الآسيوية، وزخرت بالبحوث والدراسات العربية والإسلامية، وانضوى تحت لوائها العديد من العلماء والمعنيين في آسيا والشرق الأوسط والشرق الأدنى[٤]. وبعد ذلك ظهر المصطلح في قاموس الأكاديمية الفرنسية Dictionnaire de l'Academie Francaise في باريس عام (١٨٣٨م).

توسعت دائرة الإستشراق الفرنسي بعد احتلال الجزائر عام (١٨٣٠م)، ومن بعدها تونس ومراكش، وهذا أمر دفع بشكل مذهل إلى ضرورة إنعاش الاهتمام باللغة العربية وتاريخ ودين وحضارة العرب والمسلمين.

وبولادة القرن العشرين، نشأت المدرسة العلمية التطبيقية للدراسات العليا، لاسيما الدراسات الإستشراقية التي جددت موادها وتنوعت وأصبحت أكثر تخصصاً، وعنت بقضايا التاريخ الإقتصادي والتاريخ الاجتماعي والتاريخ العمراني، وأصول اللغة وفقه اللغة وصولاً إلى القضايا الدينية والفنون والآثار[٥].

---

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٥٠

(٢) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الإستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، ج١، ص١٠٠.

(٣) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٧٨.

(٤) منتران، روبير، الإستشراق الفرنسي، أصوله، تطوره، آفاقه، ص٣٤.

(٥) منتران روبير، الإستشراق الفرنسي، أصول، تطوره، آفاقه، ص٣٥. انظر كذلك: فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٢٦٨-٢٧٣.

المبحث الثاني

دوافع الإستشراق الفرنسي – نماذج من المستشرقين والمؤسسات الإستشراقية الفرنسية

كان الإستشراق الفرنسي شأنه شأن الإستشراق الأوروبي، محكوماً بدوافع عدة مع وجود اختلاف ربما في الأولويات، وهو أمر يتماشى مع التطورات السياسية بشكل عام. وكان هناك تطور في مناهج البحث في أوروبا عامة وفرنسا منذ عصر النهضة الأوروبية عندما اندفع عدد من العلماء للتعرف إلى شعوب وحضارات تقع خارج محور الحضارة الغربية وبعيداً عن الشعوب الأوروبية.

وهناك دون شك دوافع من طرف خفي أو ظاهر لهذا الإندفاع العلمي، وما الإشارة السابقة عن كتاب "وصف مصر" إلا دليل ساطع على هذا التصور.

ومع ذلك تعددت الأهداف الإستشراقية الفرنسية تبعاً للظروف التاريخية التي مرت بها فرنسا داخلياً وخارجياً، على الأصعدة الدينية والسياسية والإقتصادية والثقافية.

لذا نجد النتاجات الإستشراقية مصبوغة بالعداء الديني في المرحلة التي سيطرت فيها الكنيسة على مقدرات الأمور، ليتخذ هذا العداء صوراً أقل فجاجة بعد تحرر العقل الفرنسي من هذه الهيمنة، حيث تظهر تأثيرات سيادة النزعة العقلية على الدراسات الإستشراقية، دون أن تستبعد العوامل السياسية والإقتصادية التي كانت حاضرة بقوة في مختلف منحنيات العلاقة الفرنسية مع الشرق. ويمكننا أن نوجز الدوافع الفرنسية في ركوب موجة الإستشراق بما يأتي:

أولاً: الدافع العلمي

يُفترض أن يكون هذا الدافع الأول لطلب علوم الشرق من حيث انه "المتعة الذهنية، وسعة الفكر الثقافية في دراسة أقوام غابرة وشعوب حاضرة، والإطلاع على لغاتها وأديانها وعاداتها وحضارتها بصورة عامة. وهذا بدوره يلقي ضوءاً على الحضارات الحديثة التي تحدرت وتطورت من تلك الحضارات"[1]، كما يشكل أحد المداخل المهمة لما شهدته فرنسا بشكل خاص من نهضة فكرية إبان عصر النهضة الأوروبية، وبالأخص الموقف من الحضارات غير العربية، واتباع أسس علمية في منهج الكتابة التاريخية.

---

(١) الرحيم، أحمد حسن (المستشرق الفرنسي، أرنست رينان ونظرته إلى اللغة والفلسفة العربية) المنشور في مجلة الإستشراق، العدد٢، ص٣٩.

وبغض النظر عن الاختلاف حول دور العرب والمسلمين الحضاري من حيث هم "مجرد نقلة لعلوم اليونان والفرس والهند"[١]، أم أنهم مبدعو حضارة، وباعتراف المصادر الأجنبية كافة قبل العربية، كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وأشبيلية وتونس منارات ثقافية[٢] اهتدى إليها طلبة العلم من كل الأجناس.

ومما لا شك فيه أن الاحتكاك المبكر للفرنسيين بالعرب والمسلمين فتح أعينهم على المنجزات العلمية والحضارية خصوصاً في الأندلس، فكانت أولا وفود الطلبة لتلقي العلم[٣]، تلتها الترجمات الأولى لعلوم الكيمياء والطب والرياضيات والفلك والفلسفة، مروراً بالدراسات الإسلامية واللغوية وانتهاءً بفتح معاهد وكراسي اللغات الشرقية، وذلك لاستيعاب ما تضمنته المخطوطات والمجلدات التي نقلت بالآلاف إلى المكتبات الفرنسية كما سبق ذكره.

ثانياً: الدافع الديني

هو محور الأهداف والغايات الإستشراقية الفرنسية منذ البدايات الأولى المتمثلة بجربرت دي أورلياك وبطرس المحترم وربما حتى العصر الحديث، وأكثر الأهداف التي مرت بأدوار مختلفة. فتارة نراه غاية يستخدم الإستشراق وسيلة، عندما تُرجم القرآن لأول مرة بغية الإطلاع على ما لدى المسلمين لصدهم أو الهجوم عليهم[٤]، وطوراً نراه وسيلة عندما أصبح مطية للأطماع السياسية والإقتصادية (الحروب الصليبية - الحملات التبشيرية كمقدمات للإستعمار) التي أسهمت في الإستيلاء على بلاد العرب والمسلمين.

وشكل الرهبان أحد المصادر المهمة التي رفدت الحكومات الفرنسية المتعاقبة بالمعلومات، عن أوضاع الشرق وأحواله[٥]، كما تعدى الإستشراف الفرنسي الحدود إلى الأقطار العربية والإسلامية وخاصة في الجزائر وتونس ومصر وسوريا ولبنان، حيث انتشرت المؤسسات الإستشراقية تحت أغطية الإرساليات التبشيرية، التي غالباً ما كونت مؤسسات تعليمية مرتبطة بها[٦].

وإن الإستشراق عموماً، والفرنسي منه، اتخذ أيضاً طابع الدفاع عن المسيحية في مواجهة إنتشار الإسلام في فرنسا وأوروبا، وذلك من خلال توجهين أساسيين،

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٠.

(٢) حداد، جورج، المدخل إلى تاريخ الحضارة، ص٥١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٥١٨.

(٤) سبقت الإشارة إلى بطرس المحترم وترجمته للقرآن الكريم.

(٥) الجليند، محمد السيد، الإستشراق والتبشير في قراءة تاريخية موجزة، [زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٦٦] ص٨٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٨٢-٩٧.

الأول ومثل مرحلة البدايات الأولى للإحتكاك بين الشرق والغرب، وبين الإسلام والمسيحية، عبر محاولات إقناع المسيحيين بأن هذا الدين الجديد هو مجرد هرطقة[١]، وأن العرب والمسلمين أقوام دونية[٢] همجية وثنية، حيث برزت التفسيرات الحاقدة والتعبيرات المهينة بحق الإسلام ونبيّه، المدفوعة ربما بدافع تبشيري، أو كما يقول رودنسون[٣]، الخوف من إنتشار الدين الإسلامي على أثر وصول المسلمين إلى أوروبا، وهو توجه يوضح طبيعة الجهود الأولى الرامية إلى تحصين الإنسان الأوروبي إزاء إغراء مبادئ الإسلام وسير رجالاته.

أما التوجه الثاني الذي تم التركيز عليه فيدور على مدى تأثير النصرانية على الدين الإسلامي، ولما أخذ اليهود الدور الأساسي في حركة الاستعراب والإستشراق بدأت الموازنة الجديدة في إظهار الأثر اليهودي التوراتي في الإسلام.

الجدير بالذكر اعتناء علماء الكنيسة باللغة العربية، بوصفها لغة المسلمين، وأداة حقيقية لفهم الإسلام من أجل الرّد عليه ودحض حجته، على أساس التراجم اللاتينية للقرآن، والعمل على هداية المسلمين بتراجم عربية للأناجيل وغيرها من الكتب[٤].

وهناك العديد من الأسماء التي بلغت الشهرة في الإستشراق الفرنسي وتنتمي إلى المؤسسات الدينية المختلفة كرهبان وقسس وباباوات، فضلاً عن جربرت وبطرس اللذين سبق ذكرهما، ونذكر أيضاً رينودو ولامانس وجوتيه وبارجيس ورينان وبورغارد وكولنجت وماريا شنايدر[٥].

واحتلت فرنسا مركزاً مهيمناً منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في بلاد الشام على صعيد التغلغل "الثقافي والإنساني" حيث كان لديها أكثر من ١٠٠ مؤسسة خدمات إجتماعية وحوالي ٢٢٠ مؤسسة تعليمية بحدود عام[٦] (١٩١٣م) وأبرز مثال جامعة القديس يوسف في بيروت التي ارتبطت بجامعة ليون وتأسست من قبل الرابطة الليونية لتطوير التعليم العالي والتقني في الخارج عام (١٩١٣م) حيث أنيطت

---

(١) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٥.

(٢) العظم، صادق حلال، ذهنية التحريم [ط١، رياض الريس، لندن، ١٩٩٢] ص٢٠.

(٣) تراث الإسلام، العدد ٨، ص٣٤.

(٤) المسلاتي، مصطفى نصر، الإستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، [ط١، دار اقرأ، بنغازي، ١٩٩٠] ص٤٥٤.

(٥) جبري، الإستشراق وجه للإستعمار الفكري، ص١٠٨-١٠٩.

(٦) السلاتي، الإستشراق السياسي، ص٢٢٠.

الإدارة فيها بالآباء اليسوعيين بينما أشرفت جامعة ليون على التعليم ومنح الشهادات[1].

(١) جبري، الإستشراق وجه للإستعمار الجديد، ص٧٨.

ثالثاً: الدافع الاقتصادي

شهدت المدن المطلّة على البحر المتوسط علاقات تجارية قوية منذ التاريخ القديم، حيث أنشأت المرافئ التي تستقبل السفن المحملة بالبضائع[١]، ومما لا شك فيه أن الاهتمام ببيع المواد المصنعة في المعامل الأوروبية يؤدي للبحث عن السوق لتصريفها، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحاجة للمواد الأولية.

لقد سبق أن ذكرنا كيف أثمرت مراحل الاحتكاك المختلفة بين الشرق العربي المسلم والغرب الأوروبي المسيحي، إن في أوقات الحرب أوالسلم، عن دراسات وبحوث وكتابات تصف ما يتوفر في الشرق من ثروات زراعية ومعدنية وحيوانية وغيرها[٢]، وعليه مثّل الاقتصاد جانباً مهماً من الدوافع الإستعمارية الفرنسية لأجزاء من الشرق.

ولعب النفط دوراً أساسياً في صياغة العلاقات الاقتصادية والسياسية بين فرنسا والدول المنتجة له. كل ذلك كان دافعاً لتعلّم اللغات الشرقية ودراسة أحوال الشرق بكل جوانبه المختلفة لتسهل السيطرة عليه والوصول إلى ثرواته، كما أصبحت هذه الدراسات مهمة لبعض ممن لم يستطع المنافسة في مجالات العلوم الأخرى فتحول إلى الإستشراق توخياً للكسب والإرتزاق[٣].

رابعاً: الدافع السياسي

من المعروف تاريخياً أن ثمة تلازماً مباشراً بين السياسة والإقتصاد، فالدوافع الإقتصادية تسهم إلى حد بعيد جداً في تحديد الاستراتيجيات السياسية، ولعب الإستشراق والمستشرقون دوراً مهماً من خلال إعداد البحوث والدراسات وتقديم المشورة لوزارات الخارجية والمستعمرات والحربية (الفرنسية).

كما عمل العديد منهم في وظائف عالية ومهمة لدى حكوماتهم، قناصل وسفراء ومترجمين وتمحورت نشاطاتهم باتجاه[٤]:

١- البحث عن مواطن القوة والضعف في الأقطار المستهدفة.

---

(١) اتصلت فرنسا بلبنان تجارياً عبر مرفأ مرسيليا. وأقامت لها قنصلية انتدبت لها أبا نوفل الخازن. كما أنشأت شركة ملاحة شرقية- الفت البعثات لإستخراج كنوز الشرق. انظر: جبري، الإستشراق وجه للإستعمار الجديد، ص٧٦.

(٢) سبقت الإشارة إلى كتاب (وصف مصر) الذي ألفته البعثة العلمية المرافقة لحملة نابليون.

(٣) جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص٢٢.

(٤) المسلاني، مصطفى نصر، الإستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، ص٢٦٥.

٢- زرع بذور الفتن بين شعوبها وتشكيكها بتاريخها وإقناعها بتخلفها عن المدنية الفرنسية.
٣- السعي إلى معرفة أسرار البلدان واتجاهات الرأي العام فيها ومحاولة التأثير في هذه الاتجاهات.

هذه الصورة السريعة من تتبع دوافع الإستشراق الفرنسي والتي وجدناها لا تختلف كثيراً في الأولويات أو الثوابت عن غيرها من دوافع الإستشراق الأوروبي أو الأميركي أو الروسي، ولن تكون إلا مقدمة للتعرف على أهم المستشرقين الذين مثلوا هذه الدوافع.

نماذج من المستشرقين الفرنسيين:

غليوم بوستل Guillaume Postel (١٥١٠-١٨٥١م) [١]

من أبرز المستشرقين الفرنسيين والأوروبيين الذي مثل عصر النهضة خير تمثيل[٢]، تعلم العديد من اللغات الشرقية والغربية، وأجاد البعض منها. كان معجباً باللغة العربية ويعتبرها لغة عالمية في حينها، واجادتها تفيد، حسب رأيه، في العلاقات مع الأمم الإسلامية جميعها، والإطلاع على المؤلفات العديدة والمفيدة التي كتبت بالعربية، كما أنه يستطيع، على حد علمه، أن يفند عقائد أعداء الدين المسيحي وأن يكون على اتصال بالأرض كلها عن طريق معرفة لغة واحدة[٣].

درّس في الكوليج دو فرانس، وكذلك لفترة قصيرة في جامعة فيينا. كانت له أكثر من زيارة إلى الشرق حيث جمع العديد من المخطوطات لصالح فرانسوا الأول ولصالحه.

من نتاجاته:

١- كتاب "حروف هجاء اثنتي عشرة لغة مختلفة: مدخل إلى قراءتها بأسهل طريق" سنة (١٥٣٨م). وهذه اللغات هي العبرية والكلدانية والسريانية والسامرية والعربية والحبشية واليونانية والجيورجية والصربية والألبانية والأرفليتة واللاتينية[٤].
٢- "نحواً عربياً" Arabic Gramatica سنة (١٥٣٩م).

---

(١) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٤٧.
(٢) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٣.
(٣) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٤٩.
(٤) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٣٥.

٣- "جمهورية الترك" سنة (١٥٣٩م) أو سنة (١٥٤٠م) وفيه يقدم صورة مثالية للمجتمع العثماني.

ومن نتاجاته أيضاً: توافق القرآن والإنجيل (١٥٤٣م)، فتوح النساء (١٥٥٣م)، وصف دستور القدس (١٥٥٣م)، عادات وشريعة المسلمين (بواتيه ١٥٦٠م)، وصف الناصرة (نشرت وصفه إنجيلا كودانزي، ميلانو، ١٩٥٢م) [١].

جوزيف سكاليجر Joseph Scaliger (١٥٤٠-١٦٠٩م)

يعتبر سكاليجر من أبرز المستشرقين المشهورين الذين أتقنوا العربية ولغات مشرقية أخرى في فرنسا، وهو من المستشرقين القلائل الذين استخدموا المصادر اليونانية واللاتينية والعربية، بروح علمية. تعقّب بولع المعضلات التاريخية لتاريخ أفريقيا المبكرة وألمّ بوثائق عصره، تلميذ بوستل، عاش سنة (١٥٦٢م) بصحبته ليتعلم منه العربية. ويبدو أنه بزّه معرفة وسعة إطلاع بالعربية والدراسات الشرقية عموماً. انصب همه الأكبر على الحقيقة التاريخية، بعكس أستاذه الذي وضع معرفته اللغوية في خدمة الديانة المسيحية. أهم عمل له ما يطلق عليه اسم "ثمرة النهم إلى المعرفة"[٢].

الكونت هنري دو بولنفييه Le Comte Henrie de Boulainvillers (١٦٥٨-١٧٢٢م).

ولد في أسرة نبيلة، منها المحاربون والدبلوماسيون، عاش عيشة بسيطة، اذكب على دراسة النظم القديمة في فرنسا وتاريخ الأسر الفرنسية الكبرى، وكان مولعاً بالسحر والتنجيم والتنبؤ بالغيب. وجد في مكتبته حوالي ألفي كتاب. وهو من أوائل المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بتاريخ السيرة النبوية الشريفة، حيث كتب "حياة محمد". نُشر بعد وفاته بسنين عدة، علماً ان كثيراً من الكتب التي ألّفها لم ينشرها[٣]. ترجم هذا الكتاب إلى الإنكليزية. اعتمد في تأليف كتابه على "مراتشي" و"بوكوك" لأنه لم يكن يعرف العربية، وأبدى فيه إعجاباً شديداً بالنبي محمد وبالإسلام ومبادئه، وأكد على أن ما جاء به من مبادئ دينية كان صحيحاً[٤].

البارون سلفستر دو ساسي Silvester de Sacy (١٧٥٨-١٨٣٨م)

ولد في باريس، درس اللغات العربية والعبرية والفارسية التركية. وفي سنة (١٧٧٨م) عيّنه الملك عضواً في جمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية في مكتبة

---

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٧٢.

(٢) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص٥٧. انظر كذلك: رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٦٣.

(٣) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص١٤٢.

(٤) ناجي، عبدالجبار، تطور الإستشراق في دراسة التراث العربي، ص٩٢- ٩٣.

باريس الوطنية[1]، فوضع بحثين في تاريخ قدماء العرب وأصل آدابهم وحقق أربعة كتب عربية عن فتح اليمن وعلّق عليها[2]. كان له تأثير قوي على مسار الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا[3]، حيث كانت باريس قبلة يؤمها الطلاب الأوروبيون لدراسة اللغات الشرقية، وبفضله تحرر مفهوم الإستشراق من قيد اللاهوت.

عين أستاذاً للعربية (١٧٩٦م) في مدرسة اللغات الشرقية، وأستاذاً للفارسية في الكوليج دو فرانس عام (١٨٠٦م). استرد عضويته في أكاديمة النقوش والآداب عام (١٨٠٣م)، انتخب عضواً في الجمعية التشريعية عام (١٨٠٨م). منحه نابليون لقب بارون عام (١٨١٤م). ومنح لقب Pair de France عام (١٨٢٢م) وهو يعطى لمن هم أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي حينذاك. ترأس الجمعية الآسيوية لدى تأسيسها والتي أصدرت المجلة الآسيوية، ولا تزال حتى اليوم من أهم المجلات الإستشراقية. صار مديراً للكوليج دو فرانس عام (١٨٢٣م) ومديراً للمدرسة الخاصة باللغات الشرقية عام (١٨٢٤م). منح العديد من الأوسمة والألقاب واستمر في نشاطه ومهامه حتى توفي في ٢١ شباط (١٨٣٨م). ورغم مسؤولياته ومناصبه، كان لديه الوقت الكافي لينجز العديد من البحوث والدراسات أهمها:

١- النحو العربي (١٨١٠م) الطبعة الأولى، (١٨٣١م) الطبعة الثانية وكانت منقحة وفيها إضافات كثيرة.
٢- عرض ديانة الدروز (١٨٣١) في مجلدين.
٣- مقامات الحريري حققها وطبعها على حسابه الخاص (١٨١٢م).
٤- ترجمة وتعليق على كتاب "الإفادة والإعتبار بما في مصر من الآثار" (١٨١٠م).
٥- كليلة ودمنة تحقيق (١٨١٦م).
٦- (بند نامه) تحقيق وترجمة (١٨١٩م).
٧- ترجمة فصول من كتاب "روضة الصفاء" لصاحبه مير خاوند بن برهان الدين خاوند شاه (١٨٣٧م).

---

(١) فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٤٥، وكذلك: بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٣٤.
(٢) العتيقي، المستشرقون، ج٢، ص١٧٩.
(٣) رودنسون، تراث الإسلام، العدد ٨، ص٧٥.

تخرج على يديه العديد من المستشرقين الفرنسيين والأوروبيين البارزين[1].

ارمان كوسن دو برسفال Arman Cossain de Persval (١٧٩٥-١٨٧١م)

من أوائل المستشرقين الذين تولوا كرسي العربية في مدرسة اللغات الشرقية•، بعد أن أقام مدة في البلاد العربية (١٨١٧-١٨٢٠م)، ثم تولى كرسي العربية في الكوليج دو فرانس (١٨٣٣م) [2]، وانتخب عضواً في أكاديمية النقوش والآداب (١٨٤٩م)[3]. من مؤلفاته: نحو اللغة العربية العامية (١٨٢٤م)، حقق المعجم العربي الفرنسي لـ الياس بقطر (١٨٢٨م)، "تعليقة على الشعراء العرب الثلاثة: الاخطل، جرير، الفرزدق" (١٨٣٤م)، باكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات، قسم العرب إلى ثلاثة أقسام: قبل الإسلام، ثم عصر الذبي، ثم انضواء القبائل تحت راية الإسلام[4]. وكان له من أبيه جان جاك كوسن دو برسفال (١٧٥٩-١٨٣٥م) ذخر وشهرة حيث صار أبوه أستاذاً في الكوليج دو فرانس وحفيظاً على المخطوطات الشرقية في المكتبة الوطنية، وعضواً في معهد فرنسا، ومن أهم أعماله: "تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين" (١٨٠٢م). وهو منتزع من "نهاية الإرب" للنويري، وتكملة ألف ليلة وليلة (١٨٠٦م)، "والجداول الفلكية" لإبن يونس (١٨٠٦م) [5]

---

(١) بدوي، عبدالرحمن، المستشرقون ص٣٣٤، انظر كذلك: العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص١٧٩. وكذلك: فوك، تاريخ حركة الإستشراق، ص١٤٥. كذلك الرمادي، جمال الدين، من الشرق والغرب، علماء أجانب في خدمة الثقافة العربية [الدار القومية للطباعة، بلا] ص٢٣.

• التي أسسها دي ساسي عام (١٧٩٥م).

(٢) بدوي، عبدالرحمن، موسوعة المستشرقين، ص٤٨٨.

(٣) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٩٣.

(٤) الرمادي، علماء في خدمة الثقافة العربية، ص٢٢.

(٥) بدوي، موسوعة المستشرقين، ٤٨٨.

لويس ماسينيون Louis Massignon (١٨٨٣-١٩٦٢م)

ولد في إحدى ضواحي باريس، والده كان نحاتاً وفناناً، ما كان له أثر كبير في تنشئته بعقلية فنية، الامر الذي ساهم في توجهه إلى العناية بالآثار الإسلامية. أول تعاطي إستشراقي له كان من خلال اشتراكه في مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر (١٩٠٥م). تجول في أغلب أقطار الوطن العربي، حيث تنقل من مراكش والجزائر إلى مصر وبغداد وسوريا وفلسطين ولبنان، درس خلالها وقدم محاضرات ونقب عن آثار (اكتشف قصر الأخيضر في العراق) وألقى العديد من المحاضرات في الجامعة المصرية.

تنقل بين مناصب ومسؤوليات عديدة. فمن معيد في كرسي الاجتماع الإسلامي في معهد فرنسا (١٩١٩م) إلى مدير الدراسات في المدرسة العملية العليا، إلى تحرير مجلة العالم الإسلامي ومجلة الدراسات الإسلامية بعدها. كما انتخب عضواً في العديد من المجامع العلمية منها الجمعية الآسيوية، والمجمع اللغوي في مصر والمجمع العلمي العربي في دمشق[١]. حصل على الدكتوراه برسالة عن آلام الحلاج من السوربون (١٩٢٢م). آثاره تربو على ٦٥٠ بين مصنف وتحقيق ومترجم وبين مقال ومحاضرة وتقرير ونقد ومقدمة وسيرة كان للحلّاج نصيب وافر فيها[٢].

هنري ماسييه Henrie Masse (١٨٨٦-١٩٦٩م)

حصل على دبلوم في العربية والفارسية والتركية من المدرسة الوطنية للغات الشرقية. التحق (باحثاً) بالمعهد الفرنسي للآثار في مصر (١٩١١م)، حصل على الدكتوراه (١٩١٩م) عن رسالته الموسومة "بحث في سعدي الشاعر". درّس في كلية آداب الجزائر أستاذاً للغة العربية والفارسية، وألقى محاضرات عن علم الاجتماع الإسلامي، ثم استاذاً للفارسية في المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية ثم مديراً للمدرسة إلى أن أحيل إلى التقاعد عام (١٩٥٨م). توزع إنتاجه بين الدراسات العربية والدراسات الفارسية، لكنه برز في ميدان الأدب الفارسي حيث ألّف وترجم[٣].

هنري لاؤوست Henrie Laoust (١٩٠٥-١٩٨٣م)

درس العربية في مدرسة اللغات الشرقية والسوربون. أمضى عاماً ملحقاً في المعهد الفرنسي في دمشق ثم عين في المعهد الفرنسي للآثار في القاهرة (١٩٣١م). وبعد أن حصل على الدكتوراه برسالتين، الأولى الرئيسية "بحث في آراء ابن تيمية

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٢٩.

(٢) الرمادي، من الشرق والغرب، علماء أجانب في خدمة الثقافة العربية، ص١٨.

(٣) بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٥٣٦.

الاجتماعية والسياسية"، والرسالة الفرعية "إسهام في دراسة المناهج الشرعية عند ابن تيمية"[١]. عين مديراً للمعهد الفرنسي في دمشق، ثم أستاذاً لكرسي اللغة والحضارة العربية في آداب جامعة ليون – وخلف ما سينيون في الكوليج دو فرانس كأستاذ لعلم الاجتماع الإسلامي، ثم خلفه في رئاسة تحرير مجلة الدراسات الإسلامية. أولى مذهب ابن حنبل مركزاً رفيعاً في كتاباته، إلى جانب كتابه عن "الانشقاقات في الإسلام" وآخر بعنوان "السياسة عند الغزالي"[٢].

المؤسسات الإستشراقية الفرنسية

مما لا شك فيه أن يكون للحركة الإستشراقية الفرنسية - التي رأينا سبيل نشأتها وتطورها، مرتكزات تنطلق منها وتوجهها بتخطيط علمي وتنظمها، بما يجعل مردودها أكبر وفائدتها أعم، ونعني بذلك مجموع المؤسسات العلمية والثقافية المعنية بالشأن الإستشراقي الفرنسي ومنها كراسي اللغات والدراسات العربية والإسلامية في الجامعات والمدارس والمعاهد مروراً بالمكتبات وصولاً إلى النشريات والدوريات.

أ. الجامعات الفرنسية التي تضم أقسام الدراسات الشرقية وهي:

١. جامعة السوربون وفيها معهد اللغات الشرقية الحيّة.
٢. جامعة ليون الثانية وتختص بدراسة المدنية الإسلامية وتاريخ سوريا.
٣. جامعة ستراسبورغ وتركز على دراسات اللغة والأدب والحضارة الإسلامية.
٤. جامعة أكسان بروفانس وتركز على الأدب العربي المعاصر.
٥. جامعة نانسي المتخصصة في دراسة الألسنية الحديثة.
٦. جامعة بواتييه المتخصصة بالحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى.
٧. جامعة بوردو المتخصصة باللغة والأدب والحضارة.
٨. الكلية الفرنسية في باريس وهي متخصصة بالآداب العربية والتاريخ الإسلامي[٣].

ب- المكتبات

١. مكتبة باريس الوطنية• (١٦٥٤م) وتحتوي على نحو سبعة آلاف مخطوط عربي. أسهم في إغنائها الحكومات الفرنسية المتعاقبة منذ نشأتها وأشخاص

---

(١) المصدر نفسه، ص٥١٠.
(٢) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص٣١٩.
(٣) مناهج المستشرقين، كتاب منهجي، جامعة بغداد، كلية الشريعة، المرحلة الرابعة، ص١٣٠.

تبرعوا بمكتباتهم الخاصة، ومخطوطات عربية، وكذلك مخطوطات مكتبات الأديار والكنائس وما أرسله نابليون خلال حملته من مصر. كما تضم العديد من الفهارس نظراً لما تحتويه من مخطوطات وهي تقيم المعارض لأصناف المخطوطات في المناسبات العلمية.

٢. مكتبات الجامعات والمعاهد، ومنها مكتبة جامعة ستراسبورغ ومكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية، ومكتبة الجمعية الآسيوية في باريس[١].

• ارسل الملك لويس الرابع عشر عام (١٦١٧م) رسالة إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزود مبعوثيه بأوامر إلى جميع القناصل الفرنسية ليضعوا رجالهم وأموالهم في خدمة هذه الغاية، انظر: عبدالمتعال، الإستشراق وجه الإستعمار الجديد، ص٢٣.

(١) العقيقي، المستشرقون، ج١، ص١٥٥.

٣. ثمة العديد من المكتبات الخاصة بأشخاص يعنون بالثقافة والإستشراق تحتوي على مجلدات ومخطوطات شرقية، ومنها مكتبات بعض العرب المقيمين في فرنسا[١].

ج- المجلات

كان هناك العديد منها وهي تعتني في مجموعها بمختلف العلوم والآداب والدراسات الشرقية العربية والإسلامية، ومنها ما يصدر في فرنسا ومنها ما يصدر في الشرق وباللغتين الفرنسية والعربية، نذكر منها على سبيل المثال:

- صحيفة العلماء Le Journal des Savants, Paris (١٦٦٥م) و هي تصدر عن جمعية العلماء الفرنسية في باريس.
- المجلة الآسيوية Journal Asiatique, Paris (١٨٢٢م) وتصدرها الجمعية الآسيوية الفرنسية في باريس.
- المجلة الأفريقية Revue, Africain, Alger (١٨٥٦م) تصدرها الجمعية التاريخية في الجزائر.
- مجلة الدراسات الإسلامية Revue des Etudes Islamiques, Paris (١٩٢٧م)

د. المطابع

حذت فرنسا حذو إيطاليا في تأسيس المطابع الشرقية، وأفادت من مطبعة دي بريف التي نقلها من روما إلى باريس. وبعد وفاته اشتراها رجال الدين [٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٢) العتيقي، المستشرقون،ج١، ص١٦٠-١٦١.

الخلاصة

يستمد الإستشراق عموماً، والفرنسي خصوصاً، فلسفته من السمات السائدة للأفكار الدينية والقومية في الغرب عن الشعوب الإسلامية، بحيث اتخذت شكل العقيدة العامة الجماعية التي صيغت على أساس غير موضوعي، إنعكاساً للأفكار التعصبية في تصورها للآخر(١).

انطلقت نظرة الذات (الفرنسية) إلى الآخر أو الغير (العربي والإسلامي)، من اعتبار الذات نموذجاً يقاس عليه الآخر.

ولما كانت الدراسات الإستشراقية الفرنسية محكومة بدوافع وأغراض الكنيسة والحكام والمصالح التي أسهمت في بلورتها، فقد تدحت النظرة الحضارية لصالح طغيان النظرة العنصرية المادية التي تجلت بصورها السياسية والإقتصادية الدينية وحتى الثقافية العلمية، في عملية إسقاط لأوهام الذات (الفرنسية) على الشرق العربي الإسلامي وتوجيه المعرفة لخدمة القوة(٢)، لتنصّب نفسها قاضياً يحكم بإبادة الذاكرة التاريخية للآخر(٣)، والتعبير بالنيابة عنه، ويبدو ذلك واضحاً عندما يستتر الغرب بشعارات براقة (عبء الرجل الأبيض في تحضر الآخرين) كمبرر ايديولوجي وحضاري للسيطرة والاستعمار(٤)، ليرسم صورة وهمية ومشوهة ترسخ في الأذهان حين يجري الحديث عن الشرق الإسلامي.

وبذلك تعكس دراسات المستشرقين وأدب الرحلات ولوحات الفنانين هذه الصورة في أذهان الجميع إذ لم يستطع أحد ممن كتبوا في السيرة النبوية والتراث العربي الإسلامي تجاوز رؤية محيطه الديني والثقافي والتحرر من نظرته السلبية المسبقة، إلا من أسلم منهم شاذاً عن القاعدة، بتفاعله مع المعطيات الروحية والثقافية للتراث العربي الإسلامي.

"فالعرب المسلمون إبّان سيادتهم الحضارية، كانت تتحكم في رؤيتهم للآخرين قناعات وصور ذهنية مقولبة تلون - الحقيقة الموضوعية - باللون المنبثق عن هذه

---

(١) السيد ياسين، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، [دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣] ص١٠١.

(٢) درويش، أحمد، (الإستشراق الفرنسي والأدب العربي)، مجلة دراسات أدبية، مطابع الهيئة العربية، القاهرة، ١٩٧٧، ص٢٢.

(٣) مقابلة مع المفكر العربي، الدكتور الياس فرح، بغداد، شباط ٢٠٠١.

(٤) قباني، رنا، أساطير أوروبا عن الشرق – لفق تسد [دار قتيبة، دمشق، ١٩٩٢] ص٦٠.

الصورة"[١]. لكن الجوهر والإختلاف الأساسي هما في زاوية النظر، أو بمعنى أدق وأوضح في الخلفية الحضارية المشبعة بروح الدين والرسالة الإسلامية السامية والنبيلة، في مقابل النظرة المادية المحملة بالمشاعر والمشحونة بالعواطف الشخصية التي يصعب تغييرها وتفنيدها بسهولة ويسر[٢] والتي تملك المعرفة بالأشياء قبل رؤيتها[٣]، فتسعى لإثبات هذه المعرفة، بغض النظر عن صحتها، من خلال ليّ عنق الحقيقة في أحيان كثيرة كما مر معنا في دراستنا.

في المقابل، حملت الحضارة العربية الإسلامية مشعل الهداية والتقدم. وشتان ما بين حضارة أفصح عطاؤها قيماً ومعاني سامية، وأخرى تدعيها وتزيفها سعياً للسيطرة والهيمنة على الحضارة الإنسانية. لقد كان الأجدر للإستشراق الفرنسي – الذي اتسعت وتنوعت دراساته لتشمل مناحي الحياة كافة، وإنجازات التراث العربي الإسلامي – لو اقتصرت مباحثه على التحقيق والعلم النقي الصافي – حيث أنجز عملاً جليلاً لا يمكن إنكاره – بعيداً عن التمثيل بالتراث العربي الإسلامي والطعن في أهم مقوماته، ما يضع جهوده في مصاف النزاهة وينزلها في موقع متميز ليس في الإستشراق فحسب وإنما في سجل الحضارة الإنسانية.

---

(١) العظمة، عزيز، العرب البرابرة: المسلمون والحضارات الأخرى [دار الريس، بيروت، ١٩٩٨] ص٧٤.

(٢) طاش، عبدالقادر، الصورة النمطية للإسلام والعرب في مرآة الإعلام الغربي، [شركة الدائرة للإعلام المحدودة، الرياض، ١٩٨٩] ص١٣.

(٣) السيد، الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر، ص٤١.